

امتحان الحبِّ الإلهي



حذّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين الأتقياء من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء أو رؤساء يتحكمون بهم، وقد شدّد الله سبحانه بتهديد هؤلاء المؤمنين، بأنّه سوف يأتي يوم يشيدون عمارة الدين مع حبّ متبادل بينهم وبين الله سبحانه.. فقال سبحانه مبتدأ جملة من الآيات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْهَا خَدُودَ وَالَّذِي صَارَ أَوْلَيَاءَ بَعْضُهُمُ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ) (المائدة/ 51)، ثمّ ختمها بقوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ أَذْلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُحَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لِأَئِمَّةٍ ذَلِكَ فَضْلُّ اللَّهِ يُؤْتَ لِتَهِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ) (المائدة/ 54). والارتداد هنا بمعنى الرجوع عن الدين بناء على موالة اليهود والنصارى.. والظاهر من المعنى القرآن أنَّ الحبَّ المتبادل بين الله سبحانه والمؤمنين هي الصفة الأولى في تركيبة القوم الذي تذكرهم الآية، مع صفات المودة والتراحم بينهم، والشدة والبأس مع الكافرين، وجهادهم المستمر في سبيل رفع راية الإسلام.. وبالتأكيد فإنَّ الرسالة الإسلامية ليست مقصورة على قوم معينين بالذات كالعرب مثلاً، وإنما هي رسالة إلهية سماوية لكل البشرية على وجه هذا الكوكب، فإن تخلى عنها العرب، فإن الله سبحانه سيبعث من يحمل الراية من قوم آخرين.. وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم، فقال تعالى: (فَإِنْ يَكْفُرُ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلَّذَا بِهَا قَوْمًا لَيَسْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) (الأعراف/ 89)، وقال تعالى: (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران/ 97)، وقال تعالى أيضاً: (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) (إبراهيم/ 8).

ولعلَّ البشرية المعاصرة تمرُّ في امتحان قاسي، عليها أن تجتازه اليوم، وإنَّ المصير موحش وقاتم.. ولا شيء يستطيع أن ينقذ هذه البشرية من عذاباتها وألامها غير الإيمان بالله سبحانه، وحبّها له.. إنَّ الارتداد والرجوع عن دين الله سبحانه إنما هو بداية الانحطاط الأخلاقي والحضاري للأمم.. فلا

شيء يشبع روحية الإنسان ويجعله عنصراً فاعلاً منتجاً في المجتمع غير إيمانه بعقيدة التوحيد، ولو استقرأنا التاريخ لوجدناه مليئاً بالعبر، ابتداءً من الحضارات القديمة وانتهاءً بالحضارات الحديثة، وما الانحطاط الاجتماعي للحضارة الغربيةاليوم عنا ببعيد..

وقد نادى القرآن الكريم باتباع الرسالة السماوية، حيث جاهد رسول الله (ص) من أجل تبليغها للناس، فقال تعالى: (فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوهُ وَمَنْ يَتَّبِعَكُمْ إِلَّا هُوَ زُورٌ رَّجِيمٌ) (آل عمران/ 31)، والمعنى هو إن كنتم تريدون أن تخلصوا الله في عبوديتكم بالبناء على الحب حقيقة فاتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب الذي يمثله الإخلاص والإسلام وهو صراط المستقيم الذي يسلكه بسالكه إليه تعالى، فإن اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن أحذكم الله وهو أعظم البشرة للحب، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يتغفه كل محب بحبه، وهذا هو الذي تقتضيه الآية الكريمة بإطلاقها.

والواقع أن دعوة الرسول (ص) إلى الإيمان بما لم يكن لتنبيها سيوف المشركين وحرابهم، طالما كان هناك تسديد إلهي لهذه الرسالة. يقول تعالى: (وَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي) (آل عمران/ 20)، ويقول أيضاً: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَيَ شَرِيعَةِ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا) (الجاثية/ 18)، ويقول تعالى على لسان النبي (ص): (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوكَ إِلَيَ اللَّهِ عَلَيَ بَصِيرَةٍ أَزَّا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف/ 108). فمعالم الدعوة إذن واضحة في ذهن الرسول الأكرم (ص)، وهو الداعية الأولى للإسلام.. واتباع الرسول (ص) هو اتباع شريعة الله، وحب الرسول (ص) باعتبارهنبي الله على هذا الكوكب، هو بالنسبة له سبحانه وتعالى..

وتتشكل بهذا المنظار الرائع صورة الحب الإلهي للمؤمنين المخلصين المتكاتفين الذين لا يبغون شيئاً من هذه الحياة الفانية غير الفوز برضوان الله وحبه.. وكما ألفنا الحياة بامتحاناها وموافقها الصعبة.. كذلك الحب الإلهي، حيث الاختبارات المتواصلة للإنسان المؤمن المحب.. ومهما كثرت الاختبارات وصمد الإنسان فيها واجتازها بصبر وثقة بما، ازداد اعتمانه سبحانه وحبه لهذا الإنسان المؤمن الصابر..

إن المحن التي يمر بها المؤمنون في زحمة الحياة المعاصرة، تتطلب جهوداً مضاعفة للثبات والصمود، خاصة وأن المتغيرات الحديثة في حياة الأفراد، جعلت الإنسان العادي وكأنه ريشة في مهب الريح.. بينما يريد الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا وكأنهم بنيان أحكم بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.. (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُذْكُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَأَزْرَهُمْ بُنْدِيَانُ مَرْصُوصٌ) (الصف/ 4).

إن الحب الإلهي للإنسان المؤمن تكريم وقيمة لا تشم.. وإن حب المؤمن الله سبحانه له قيمة أساسية من لبنيات شخصيته الإسلامية المتميزة.. فهي التي تهدى سلوكه في الحياة، وهي التي تمنحه التسديد الروحي الذي هو بأمس الحاجة إليه في خضم هذه الحياة القلقة المضطربة.